خطب أصحاب الإمام الحسين(عليهم السلام)
- دراسة في أنظمة الخطاب-

أ.م.د. أحمد عبد العال سعيد

جامعة واسط/ كلّيّة التربيّة للعلوم الإنسانيّة

Sermons of the Companions of Imam Hussein (peace be upon them)
- A Study in the Systems of Discourse-

Asst. Prof. Dr. Ahmed Abdulaal Saeed

University of Wasit/College of Education for Human Sciences

ملخص البحث

معلوم أنّ ثورة الإمام الحسين(عليه السلام) قد حملت في أثنائها كمًا كبيرًا من الأقوال والخطب والأفعال، التي رسمت طريقها، وحدّدت منهجها، ووصفت أبعادها، وكشفت غاياتها، ومن بين هذه المقولات ما رفد به أصحابه (عليهم السلام) الموقف من خطب، أبانت عمق مناصرتهم ومستوى موقفهم؛ لأنّ بواعثها لم تكن المناصرة والمحاججة فحسب بل منها إتمام الحجة وتعرية الإعلام الزائف وتهشيم صورته الخادعة، فضلًا عن الانفعال باللحظة الحاضرة للثورة أيضا، وقد ظهر هذا في تأليف لغويّ وأسلوبيّ وُضِع فيه كلّ شيءٍ بعناية ليحقق هدفه السامي الذي نشأ من أجله، وهذا يعني أنّ هذه الخطب قد انتظمتها عدّة قوانين بنائية تحكّمت في صياغتها وصورتها التأليفية. وتأتي مهمة هذه الدراسة في الكشف عن هذه الأنظمة والقوانين، وبيان سلطتها، وما تُحيل إليه من أهداف وغايات.

إنّ عدد هذه الخطب (خمسٌ) أنشأها كلّ من: زهير بن القين، وبرير بن خضير، والحرّ بن يزيد الرياحيّ، وحنظلة بن أسعد الشباميّ، وعبد الله بن عفيف الأزديّ (رضوان الله عليهم جميعًا)، وهي عيّنة الدراسة التي ستحاول مقاربتها برؤية نصيّة فاحصة.

Abstract

It is known that the revolution of Imam Hussein (peace be upon him) carried during it a large amount of sayings, sermons and actions, which outlined its path, determined its approach, described its dimensions, and revealed its goals. Among these sayings are what his companions (peace be upon them) supported the position with from sermons, which demonstrated the depth of their support and the level of their position. Its motives were not only advocacy and argumentation, but also completing the argument, exposing the false media and shattering its deceptive image, in addition to being emotional about the present moment of the revolution as well. This appeared in a linguistic and stylistic composition in which everything was carefully placed to achieve its lofty goal for which it was created. This means that these sermons were organized by several structural laws that controlled their formulation and compositional image. The mission of this study is to reveal these systems and laws, clarify their authority, and what they refer to in terms of goals and purposes. The number of these sermons is five, created by Zuhair bin Al-Qain, Burayr bin Khudair, Al-Hurr bin Yazid Al-Riyahi, Hanthala bin Asaad Al-Shabami, and Abdullah bin Afif Al-Azdi (may Allah be pleased with them all). This is the sample of the study that will try to approach with a critical textual vision.

توطئة:

تستهدف هذه الدراسة رصد أنظمة الخطاب المتحكمة في خطب أصحاب الإمام الحسين(عليه السلام)، وهي حين ترصد ذلك تراعي أنّها قد تشكّلت نتيجة ظروف تاريخيّة خاصّة وفاصلة أنتجت هذه الخطب، كما أنتجت الثورة التي رفع لواءها سيّد الشهداء الإمام الحسين(عليه السلام) يعينه في ذلك أهل بيته وأصحابه.

إنّ هذه المادة النثرية تنطوي على مضامين دينية وتوجيهية ومعرفية فاعلة غايتها التواصل المنتج وإحداث الأثر وإعادة تشكيل الوعي المغاير، بما تحوي من مواقف ومفاهيم وتصورات تكشف عن وعي منشئها وعن الأنظمة البنائية الفاعلة التي انتجتها[1].

إنّ أنظمة الخطاب تتغاير من نصّ لآخر بحسب طريقة البناء والتشكيل، بيد أنّ هذه النصوص تلتقي في لحظة انبثاقها ومقصديتها وهو ما انسحب على تأليفها؛ ومن ثم انتظمت في أبنية وتقانات ذات مسارات متوازية تلتقي في مواضع كثيرة لتمتد على مساحة واسعة من هذه الخطب وتشترك بينها.

وتبقى الدراسة النصية واشتغالاتها التطبيقية هي الأساس في الكشف عن هذه الأنظمة وهيمنتها وحجم ظهورها في هذه الخطب، وهو ما يسمح بمعالجتها على أساس رؤية شاملة تضمّ هذه النصوص جميعًا؛ لأنّها تعبّر عن موقف جمعي واحد، سلكه الأنصار في التعاطي مع الآخر، برز في المقاصد والدلالة كما برز في القوانين الكبرى التي تأسست عليها هذه النصوص وهو ما تسعى الدراسة إلى بيانه.

مهاد نظري:

الخطبة.. الخطاب:

اللفظتان تنحدران من أصل لغويّ واحد هو(خَطَبَ)، وهو أصل

تتفتق منه عدّة صيغ لغوية أخرى، كالمخاطبة، والتخاطب، والخَطْب، والمخطبة، والخطيب[٢]، ممّا يشي بغزارة هذا الأصل وتنوع دلالاته، ومن بينها دلالات (الخطبة) و(الخطاب).

إنّ الخطبة «اسم للكلام الذي يتكلّم به الخطيب»[٣]. وضع موضع المصدر؛ لأنّ الأصل «خاطبه يخاطبه خِطابا، والخطبة من ذلك»[٤]، وهي من «خطبتُ على المنبر خُطبة، بالضم... وقال ثعلب: خَطَبَ على القوم خطبة»[٥].

هذا المفهوم اللغويّ أبان عن دلالة عامة في معنى الخطبة، لم تكتفِ بها المعاجم، فقد أبعدت في استكمالها، فالخطبة «مثل الرسالة، التي لها أوّل وآخر»[٦]، وذهب «أبو إسحاق إلى أنّ الخطبة عند العرب: الكلام المنثور المسجّع، ونحوه»[٧]. وهذا الوصف اللغويّ الذي أقرّ المواصفات البنائية في (الخطبة) ونبّه إليها بدقة متأت من أنّ (الخطبة) من أقدم الفنون التي تعارف عليها العرب، كيف لا وهي صنو الشعر وقرينه في أقدم العصور؟

أمّا الخِطاب فهو «الكلام بين اثنين»[٨]، وهو يعني «مراجعة الكلام، وقد خاطَبَه بالكلام مُخاطبة وخِطابًا، وهما يتخاطبان»[٩] وهذا التوصيف اللغوي مع إيجازه ينطوي على إشارات لغوي مهمة تلحظ طرفي التخاطب وطبيعته، ممّا ينفرد بهما عن غيره.

إنّ الدلالات المتقدّمة تفترض في (الخطبة) و(الخطاب) جميعًا وجود مرسل ومستقبل إلّا أنّ الخطبة تقتضي وجود السياق اللّغوي الشفاهي المعروف، بينما المهم في الخطاب هو التواصل وتداول الكلام، «فالعملية التخاطبية تقتضي وجود طرفين المرسل والمتلقي مع ضرورة انتمائهما لنفس المنظومة اللغوية لحصول عملية الفهم والتواصل»[١٠].

إنّ الإشارات اللغويّة الواردة

في دلالة (اللفظة) قد تشكّل منبعًا ثرًّا يستقي منه النقاد في إضاءة الدلالة الاصطلاحية، ذلك بأنّ الإشارات اللغوية تمثل نقطة البداية في الربط بين الفهم اللّغوي والفهم الاصطلاحي، كما يبدو هذا مع مصطلح (الخطبة) إذ أُشير إليه حديثًا على أنّه فن «المشافهة من طريق الإلقاء، وأما أركانه فهي: الخطيب، والمضمون، والجمهور، إذ ينقل المتكلم (الخطيب) كلامًا مسموعًا(المضمون) بوساطة إلقائه على مستمع موجود أمامه(الجمهور)، على حين أنّ [هدفه] الإقناع وفق وسائل منطقية وأساليب خطابية... أما الاستمالة والتأثير بناءً على أساليب خطابية تحددها أصول وقواعد مضبوطة سلفًا، فهي غاية هذا الفن النثري»[١١].

إنّ وظائف الخطبة كثيرة ومتنوعة لا يمكن حصرها في اتجاه محدد، ومن هنا اختلفت أشكالها وتعدّدت مهامها، ولكن يبقى التواصل والإقناع والاستمالة هي الثابت الجوهري في أدائها، ممّا احتفى به التعريف السابق، الذي أهمل الإشارة إلى الصياغة الجمالية والإبداع الأدبي الذي تُبنى على أساسه الخطب الناجحة.

أمّا مصطلح (الخطاب) فهو يشير في أبسط حدوده إلى «كلّ كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء أكان مكتوبا أو ملفوظا، غير أنّ الاستعمال الاصطلاحي تجاوز ذلك إلى مدلول أكثر تحديدا يتصل بما لاحظه الفيلسوف هـ.ب.غرايس عام ١٩٧٥م من أنّ للكلام دلالات غير ملفوظة يدركها المتحدث والسامع دون علامة معلنة أو واضحة»[١٢]، وهو يستعين في صياغة هذه الدلالات بالبعد المعرفي والتواصلي بين الطرفين، أي إنّ الخطاب هنا تجاوز الفهم اللغوي إلى التشكل في إطار سياقي خارجي يربط

بين الطرفين، لاشتراكهما بالظروف الاجتماعية والتواصل اللغوي والمعرفي.

والخطاب لا يخضع لنمط واحد، بل يتجلّى في أنماط متعددة، بناء على معايير اجتماعية وأخرى ثقافية، فهناك الخطاب السياسي، والديني، والأدبي وغيرها[١٣]. وخطب أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) تندرج في سياق الخطاب الديني، وإنتاج هذا الخطاب بمحتواه الديني المعرفي يتمظهر في عدّة أنظمة، شكّلت جوهرها وتوافقت مع غاياتها، و لكنا هنا سنقتصر على الأنظمة الكبرى، وهي: النظام الشفاهي، والنظام الرمزي، والنظام الحجاجي؛ لأنّ سائر الأنظمة الصغرى ترفدها وتعضدها وتدخل في حيثياتها، الأمر الذي يُعلي من طاقتها التأثيرية.

أولا: النظام الشفاهي(التواصلي):

الخطبة فن شفاهي تواصلي بامتياز، فكلّ الفنون الأدبية الأخرى تتراوح في إنتاجها بين المشافهة والكتابة، في حين أن الخطبة لا تصحّ إلّا إلقاءً، وهذا يمنحها فرادة متميزة ينبغي أن تراعى في دراستها؛ فصوت الخطيب، ووقفاته اللّغوية وطريقة تقطيعه للعبارات مثلا كلّ ذلك يسهم في خلق أدبيتها ويضيف لها طاقة جمالية فائقة. ومع أنّ هذا قد يغيب في أغلبه عن نصوصها المكتوبة، إلّا أنّ الباحث قد يعتصم بمضمون العبارات أو الأفكار الجزئية؛ ليرسم تصورًا أوليًّا عن هذه الكيفية. ما نسعى إلى بيانه أنّ هذه الشفاهية لابد أن تترك بصمة واضحة في النسق الصوتي اللغوي وشكل العبارات من حيث الطول والقصر، وطبيعة الوظيفة التي تضطلع بها الخطبة، وكذلك اختيار الأفكار الواردة فيها؛ لأنها «تخضع لعملية انتقاء بحيث لا نجد في الخطاب إلّا المعلومات الضرورية»[١٤] التي تؤدي

مهمة مقصودة.

إنّ الخطبة تستغل سياقاتها جميعا (الخارجيّة والنصيّة) ومضمونها وكلّ قضاياها من أجل تحقيق غايتها وأداء وظيفتها، ويقع المستوى اللغوي في الصدارة.

وتمتاز خطب أصحاب الإمام الحسين (عليه اسلام) بكثرة استعمال أفعال الحضور(المضارعة) على سائر الأفعال الأخرى، فضلا عن العبارات الاسمية، ومن نماذج ذلك قول الحر الرياحي(رض) مخاطبًا جموع الضلال في حربهم على الإمام الحسين(ع): «فمنعتموه من التوجه في بلاد الله العريضة حتّى يأمنَ ويأمنُ أهلَ بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعًا ولا يدفع ضرًا، وحلأتموه ونساءه وصبيته وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهوديّ والمجوسيّ والنصرانيّ وتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه»[١٥].

فالأفعال(يأمن، يملك، يدفع، يشربه، تمرغ) أفعال مضارعة لجأ الخطاب إليها بقصد وصف الحال الحاضرة، من أجل وضع السامع في مشاهدة حقيقية، وآنيّه للصورة المؤثرة، وهو أقوى في الإقناع والاستمالة، كيف لا وهذا التوصيف يمثل اللحظة الحاضرة؟ في حين لما يقصد المنشئ التذكير فإنّه يبث في النصّ التراكيب الماضية، كقول برير بن خضير(رض): «أنسيتم كتبكم إليه وعهودكم التي أعطيتموها من أنفسكم؟ وأشهدتم الله عليها وكفى بالله شهيدا، ياويلكم! دعوتم أهل بيت نبيكم، وزعمتم أنّكم تقتلون أنفسكم دونهم، حتّى إذا أتوا عليكم أسلمتموهم»[١٦].

أي أنّ نسق التراكيب السائد في هذه الخطب هو المضارع، ولا ينكسر هذا النسق إلّا في حالة التذكير، فإنّ التراكيب ستؤول إلى المضي والتراجع الزمني، في سبيل التواصل ودفع

السامع إلى التراجع؛ فعلى الرغم من اختلاف الحال والتباين التام بين موقف أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) وموقف الطغمة الفاسدة من أعدائه، فإنّ الأنصار حاولوا خلق نافذة للتواصل عمادها الخطابة بغية دفع الأعداء إلى التراجع عن درب الغواية والضلال.

وتهيمن الوظيفة الإفهامية التأثيرية على باقي الوظائف في خطب الأنصار ويظهر تعبيرها النحوي الأكثر خلوصا في النداء[١٧]. ويبدو ذلك في كلّ الخطب، بل إنّ بعضها يتراكم فيها أسلوب النداء، ففي خطبة زهير بن القين يظهر النداء بوصفه العبارة الأولى فيها، إذ يقول: «يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار»[١٨]، وهذا النداء الذي خصّ أهل الكوفة ظهر أيضا في خطبة برير بن خضير «يا أهل الكوفة أنسيتم كتبكم وعهودكم الذي أعطيتموها من أنفسكم، وأشهدتم عليها الله وكفى بالله شهيدا».

إنّ الخطاب توجّه إلى أهل الكوفة -هنا- لأنّهم كتبوا إلى الإمام الحسين (عليه السلام) ودعوه إلى المجيء ولم يفوا بعهودهم وقوله (وأشهدتم عليها الله) تشنيع شديد عليهم، بلغ الغاية في حثّهم على التراجع؛ لأنّ الله -عز وعلا- هو أعظم الشهود وهو مَنْ سيجازي على نكث العهود، ولأنّ الوفاء سمة تعتز بها العرب وتزدري من يخالفها.

وورد النداء بصيغة (يا هؤلاء) في خطبة برير بن خضير[١٩]، وهو نداء غايته الشمول إذ يستوعب جميع الأعداء ويخاطبهم (أهل الكوفة وغيرهم) فضلًا عن أنّه يترفع عن تسميتهم بأسمائهم أو أسماء أماكنهم، ومثله قول الحرّ الرياحي (أيّها القوم)[٢٠]،وقد يبرز هنا تساؤل لِمَ استعملت بعض الخطب النداء (عباد الله)؟ إذ ورد في خطبة زهير بن القين[٢١]، وهي تضفي عليهم سمة العبودية

ما لم يقاتلوا الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته وأصحابه، وفي هذا دعوة إلى التراجع السريع، ما دام ثمة ارتباط بعبادة الله تعالى، يقول زهير بن القين(رض): ((إنّ حقًا على المسلم نصيحة أخيه المسلم ونحن حتّى الآن إخوة وعلى دين واحد وملّة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنّا أمة وأنتم أمة)).

هذا الشكل من التواصل هو تواصل ديني غايته إرشادية إفهامية صدر من الأنصار إلى الطرف الآخر، كان يبحث عن خيوط التواصل والحثّ على العودة، مالم تغادرهم الفرصة (ونحن حتّى الآن إخوة وعلى دين واحد)،(ما لم يقع بيننا وبينكم السيف)، ويبدو أنّ زهير بن القين قد اختصر الموقف تلك اللحظة بعبارات موجزة تضع السامع على المحك في مهمة تقرير المصير، فهذا الانتماء الواحد الذي لوّح به هو انتماء مؤقت سرعان ما سينفرج الأمر بعده إلى حقيقة واحدة ناصعة، قوامها البقاء في هذا الأصل وهذا الانتماء، وذلك بالتراجع والعدول عن مواجهة أهل الحق ودعاة التوحيد، أو اختيار طريق الغواية ومحاصرة الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه وقتلهم وحينئذ سيكونون مصداقا لقوله (وكنّا أمّة وأنتم أمّه). وأيّ أمة هذه التى تقتّل أبناء النبيين؟ سوى أمة الانحراف والضّلال. التي حادت عن طريق الإيمان والتقديس.

ثانيا: النظام الرمزي(الإشاري):

إنّ قيمة موضوع الخطاب ومدى خطورته تفرض على المنشئ الاتكاء على أساليب وتقاتات نصية عديدة، تيسّر له قصد الإبلاغ وإيصال الرسالة وأدائها بأنصع صورة وأكملها. لقد اكتسبت خطب أصحاب الإمام الحسين أهمية قصوى في موضوعها

وأهدافها، وتزداد هذه الأهمية بلحاظ زمنها، فقد انبثقت في وقت مثّلت فيه الفرصة الأخيرة والمواتية لإحداث ردّة فعل عميقة في جموع الضّلال ودفعهم إلى التراجع عن الغواية قبل فوات الأوان، بل هي الحدّ الفاصل الذي سينقسم بعده الجمع إلى فريقين أو أمتين -كما عبّر زهير بن القين(رض)- (الإيمان) و(الكفر)، (الصلاح) و(الضلال)،(الخير)،و(الشرّ)،ومع هذا ستضيع أيّ فرصة للتراجع والتوبة وتدارك الموقف. هذا الإحساس وهذه المسؤولية فرضت على الصحب الطاهر في هذا الموقف الحرج وهذه الانعطافة التاريخية أن يضيئوا الموقف بما اكتنزوا من فنون البلاغة وأساليبها وأدواتها بكلمات بهيّة وعبارات واعية -ولكن هيهات لمن ملأ الصمم روحه قبل أذنه- تستند إلى فنون الإبلاغ المؤثّرة، ومنها(الرمز).

والرمز بمفهوم مبسط هو «إشارة أو تعبير عن شيء بشيء آخر»[٢٢]، وهذا التوظيف يأخذ طريقه في سياق التجربة، لما له من إمكانية على حمل «الرؤى والأفكار وتجسيدها في النص الأدبي، وخلق الإيحاء القادر على توفير إمكانية التأويل بما يخدم تلك الأفكار، إذ إنّ الرمز باستحضاره من مرجعياته أو بنائه على وفق ثنائيات التضاد، يكون قد نقل الزخم الدلالي والشحنة الإنفعالية من ذلك المصدر وصياغتها بما يُلائم أغراض استحضاره»[٢٣]، وهو يؤدي هذه المهمة بطريقة موجية بعيدا عن الأداء المباشر.

وتبدو هنا الإجابة ضرورية بمكان عن سؤال لا مناص منه، يترشح عبر هذا الفهم لطبيعة الرمز، وهو إنّ سياق الموقف الذي ظهر فيه الأنصار يستوجب الإبانة والوضوح الكشف بموازين لفظية تؤدي كلّ كلمة فيها وظيفتها بعناية وإتقان، فلِمَ

الترميز؟

وفي الإجابة نقول: إنّ النظام الرمزيّ بإيحائيته يسمح بالتأويل والتدبّر، ولذلك هو يرفد النسق الإيضاحي المتواصل في سائر الخطاب ويزيده تأثيرًا وفاعلية، كما أنّه يؤدي مهمة إبلاغية لا تؤدّى إلّا بالتلميح الذي يضمر معاني كثيرة في ألفاظ موجزة، بل هو قادر «على خلق الإيحاء القادر على النهوض بالمعاني المبتغاة... وخلق القناعات الفكرية والفنية للآراء والأفكار التي تمرر فيه بالإحالة لمرجعيات الرموز»[٢٤]، ولاسيما إن كانت هذه الرموز متلبسة سمة الأسماء، التي تتجاوز إحالاتها الاعتيادية الظاهرة إلى حضور رمزي تتسرب منه دلالات أعمق، حيث «تكون موحية وفيها إشباع دلاليّ يمارس نشاطه المعرفي بالمعاني الكامنة في ما وراء السياق»[٢٥]، وعندئذ يكون «التلميح بأيسر القول عمّا يحتويه النص»[٢٦]. كما في قول زهير بن القين في كربلاء: «عباد الله إنّ ولد فاطمة رضوان الله عليها أحقّ بالودّ والنصر من ابن سمية».

إنّ اسم السيّدة فاطمة (عليها السلام) يختصر كل صور الفضيلة والسمّو كما استقرّ في أذهان الناس ممّا ثبّته النبي(ص) وأكّده كثيرا، وهو تَجاوز دلالة التسمية إلى بُعدٍ رمزيّ تحتشد فيه كلّ قيم الإسلام ومبادئه وأفكاره وسبل هديه، التي نادى بها الإمام الحسين(عليه السلام) في ثورته، بينما الاسم الآخر (سميّة) نقيض ذلك تماما حيث يرسم صورة سوداء لاتفارق الذاكرة الجمعية غائرة في عالم السوء «تكشف عن الجانب الخفي بفساد الأصل الذي ينتمي إليه ابن زياد وخسته»[٢٧]، وقد استثار المنشئ هذه المعرفة الكامنة في الجمهور وحاول جهده استنهاضها، وبخاصّة حين أورد (ولد) فاطمة بصيغة

الجمع(الحسين (عليه السلام) وذريته، وأهل بيته)، ليؤلف بنية دلالية متعاقبة يرتبط فيها قوله (عباد الله) بـ(ولد فاطمة) ثمّ المودة والنصر، فمن كان عبدا لله -سبحانه وتعالى- لابدّ له من مؤازرة أنصار الله وأهل بيت نبيه، ممّن هم أحقّ بالود والنصر، موحيا بذلك إلى قوله تعالى﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلّا المودة بالقربى﴾[٢٨].

ومن الدلالات الرمزيّة التي تتجلى في الأسماء توظيف زهير بن القين أيضا للفظ (السيف) في قوله:(ونحن حتّى الآن إخوة وعلى دين واحد وملّة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العِصمة، وكنّا أمة وأنتم أمة).

إنّ هذه العبارات القليلة اختصرت الموقف ورسمت عواقبه في صورة متحفزة تبعث على الالتفات والتدبر كثيرًا، قبل أيّ قرار، ويبدو «في سياق الخطبة أنّ زهير بن القين (عليه السلام) يُنذر القوم وينصحهم ويحذرهم من قيام الحرب، وإن لم يصرّح بلفظها، إلّا أنّه رمز إليها بـ(السيف) بقوله: (فإذا وقع السيف)، فـ(السيف) لازمة من لوازم الحرب، وليس الحرب بكلّ مكوناتها، وقد تكون العلّة في توظيفه كـ(رمز) من دون غيره من مكونات الحرب ما يمثله من أهمية كبيرة في الحرب، وما يخلّفه من آثار جسدية تفضي إلى المتلقي بالحذر والتدبر فيما يقدم عليه من قرار، وهذا ما يهدف إليه المنشئ من القول»[٢٩]، ويعمل على تحقيقه في طريقة البث والصياغة الأدبية.

وهذا القول يأخذ سبيل النصح والتوعية بيد أنّه لايسلك إلى ذلك أسلوبا واحدا؛ فهو يلين أحيانا ليذكّر بـ(الإخوة) و(دين واحد) و(ملّة واحدة)، ويشتدّ أحيانا أخرى (انقطعت العصمة)، و(كنّا أمة وأنتم أمة)، والفيصل في ذلك (إذا وقع

السيف)، ومن ثمّ فإن تغاير نسق الخطاب قبل هذه اللفظة عمّا بعدها يُنْبئ بخطورة الموقف وتداعياته وآثاره السلبية الكبيرة، كما يُنْبِئ بطاقة هذا الرمز الإيحائية التي امتدّ اشعاعها على النصّ وتحكّم ببنيته، فكان ما قبله مختلفاً عمّا بعده نسقًا وموقفًا ودلالةً وتأثيرًا.

وقد تحتشد الرموز في النصّ الواحد، لبث قدرًا كبيرًا من الإشارات الموحية، التي تستهدف ذاكرة المتلقي، في صورة صدمات نصيّة متعددة ومتراكمة تؤديها الرموز في تعاقبها وتواصلها وتقاطعها في دلالة مشتركة يركّز عليها المنشئ، لقوتها على جذب الانتباه واستفزاز الذاكرة، ولاخير في ذلك من استغلال نصوص القرآن والرموز الكامنة فيها، ولذلك جاءت خطبة حنظلة بن أسعد الشباميّ عبارة عن نصّ قرآني معبّأ بالرموز التاريخية الفاعلة، إذ اقتصر خطابه على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ* مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[٣٠].

فهذا النصّ ترميز لوقائع تاريخيّة قصصيّة تنطبق بقوة خارج مسمّياتها على كلّ صورة مشابهة في سياق مماثل، فقول (الذي آمن)، ينطبق على صوت الأنصار في الدعوة إلى الإصلاح، أما قوم (نوح) و(عاد) و(ثمود) فهذه التعابير المحتشدة تؤلّف نظاما من الرموز ينقل المتلقي الى عالم أوسع، يفصّل فيه القرآن في مواضع أخرى صورة الضلال الذي كان عليه هؤلاء، وانتهاكهم حرمة المقدّس، بمعنى أنّ هذه الإشارات الموجزة تحيل إلى صور مفصّلة في سياقات قرآنية معروفة تكشف بشاعة فعل هؤلاء

القوم وما حلّ بهم، ومن هنا انطوت هذه الرموز على تحذير شديد من تشابه العاقبة في انتهاك حرمة الإمام الحسين وأهل بيته ومبادئ الدين التي يحملها. وكذا الأمر مع (يوم الأحزاب) و(يوم التناد) التي آزرت الرموز المتقدّمة وقوّت من فاعليتها في محاولة تصحيح المسار.

هذا الاستدعاء لآي القرآن الكريم والاكتفاء به في تحقيق مقصد الخطيب يصوّر «توافق المضامين بين النص القرآني والخطاب الحسيني، فالحسين وأهل بيته وأصحابه خرجوا للإصلاح في أمّة الإسلام، والقرآن جوهر الإصلاح ودستوره في ثورة الإمام الحسين(عليه السلام)»[٣١]، ومن نهض معه لرفع راية الحق.

ثالثاً: النظام الحجاجي(الإقناعي):

ثمّة علاقة تفاعلية بنائية وطيدة بين الخطاب والحجاج، يُكمل فيها كلّ منهما الآخر، إذ تعتصم الخطابة بالحجاج في تحقيق غايتها التأثيرية وبثّ الدلالات الإقناعية المقصودة، وتوجيه وعي المتلقي الفكري والنفسي. ذلك بأنّ الحجاج «يبني على قضية خلافية يعرض فيها المتكلّم دعواه مدعومة بالتبريرات عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطًا منطقيًا، قاصدًا إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية»[٣٢].

وعلى هذا الأساس يمكن تصور حجم الاندماج والترابط بينهما، كما يمكن تصور حجم التوظيف الحجاجي في الخطابة أيّا كان شكلها ونوعها، مادام أنّها تمارس فعلًا توجيهيًّا وتأثيريًّا في أولى غاياتها. ومن يطالع خطب الأنصار يدرك -بسهولة- أنّ بنيتها تتمظهر -غالبا ً- في سياق حجاجي يزخر بهذه التقانة المهمة التي تتشكل في مستويات عدة.

فإذا استشنيا افتتاحياتها التي تعدّ عتبة التهيّئ من أجل مدّ جسور التواصل، وكذلك خواتيمها التي ارتسمت فيها معالم الاستجابة

والتفاعل مع الخطيب، وكلّ منهما تألّفت من بنية تركيبية تحذيرية، فإن هذه الخطب تبقى خالصة بنائيًا على أساس حجاجي، تتشكل في فضائه وسائل أخرى كالرمز وغيره من أجل دعم فاعليته وتأثيره.

هذه الخطب زاخرة بالحجاج الذي كان يستهدف إحداث هزة فكرية وعقائدية هدفها تعديل المسار الذي سلكه الآخر وتبديل موقفه الفكري الضال الذي وقع تحت تأثير الغواية والخداع.

إنّ موقف الأنصار كان حجاجيًا اصلاحيًا يستلهم هديه من القرآن الكريم بمثل ما ظهر في خطبة حنظلة بن أسعد الشباميّ التي جاءت على صورة اقتباس تام من القرآن، بغية تحقيق غاية تأثيرية مشعة تقطع طريق الغواية من أجل إنقاذ من غُرّر به وحاد عن الصواب.

إنّ خُلُق الأنصار ووعيهم وفكرهم فرض عليهم حقّ الذبّ عن الحسين وعياله (عليهم السلام) ونصرة الحق، ودحض دعوى الباطل وإزهاقها وكلّ هذا يتأتى بالمحاججة أو(النصيحة) كما يسميها زهير بن القين((إنّ حقًا على المسلم نصيحة أخيه المسلم)) و((أنتم للنصيحة منا أهل...)) بما أنّ الأمر لم يؤل - بعدُ- إلى انكشاف المواقف وترجمتها إلى أفعال.

ويتخذ الحجاج سبلًا شتّى في هذه الخطب، ممكن أن نصطلح عليها -إن صحّ القول- بالحجاج المفرد، الذي يُبنى على فكرة واحدة، والحجاج المركّب الذي تتراكب فيه عدّة أفكار في بنية حجاجية واحدة، والحجاج المتصاعد الذي يمثّله السلم الحجاجي حين يحشّد سلسلة من البنى الحجاجية التي تتصاعد دلاليًا في نواة كبرى من الأفكار المترابطة.

من غايات الحجاج المفرد جلب انتباه السامع وشده إلى موضوع واحد؛ وذلك بالتلميح بأيسر القول عمّا يحتويه

النص[٣٣]، ولعلّ هذا يتوافق مع طبيعة المقام المتوتر قبيل الواقعة الأليمة ومحاولة تركيز القول في فكرة موجزة، كما في قول عبد الله بن عفيف الأزديّ: « يا ابن مرجانة، أتقتلون أبناء النبيين، وتتكلمون بكلام الصديقين»[٣٤]. فهذه الصورة ذات البنية المتضادّة تكشف زيف من يحاول أن يتشبّه (بالصديقينَ) وأهل الحق، وهو في الآن ذاته يقتل (أبناء النبيين)، وهذا التضاد يحدث هزّة عنيفة في خلد المتلقي تدفعه إلى إعادة وضع الشخصيّات في نصابها بعد التدبر والتفكّر.

ومن صور الحجاج المركّب قول زهير بن القين مخاطبًا الآخر الضال: ((إنّ الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد (ص) لينظر ما نحن وأنتم عاملون))، وهو يكرّر هذا في موضع آخر ((عباد الله إنّ ولد فاطمة رضوان الله عليها أحقّ بالودّ والنصر من ابن سمية)) ومثله قول برير بن خضير((يا هولاء اتقوا الله، فانّ نسل محمدٍ (ص) قد أصبح بين أظهركم، وهؤلاء ذريته وعترته وبناته وحريمه))، ومثله قول الحرّ ابن يزيد الرياحيّ ((منعتموه من التوجه في بلاد الله العريضة حتّى يأمنَ ويأمنُ أهل بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير لايملك لنفسه نفعًا ولا يدفع ضُرّا، وحلأتموه ونساءه وصبيته وأصحابه عن ماء الفرات... وها هم قد صرعهم العطش بئسما خلفتم محمدًا في ذريته)).

إنّ أول أسس الحجاج في هذه الخطب هو الانطلاق من فكرة المودة القرآنية، التي لم تُراعَ من الآخر، بل كان موقفه الواقعي خلافًا تامًا ومفارقًا لدعوى القرآن وتوجيهه. ويطلّ علينا من هذه الفكرة الحجاجية الشاملة عدّة تفرعات حجاجية تعزز هذه الفكرة مثل التذكير بالمرجع والأصل، (أبناء فاطمة) عليها السلام، والأمان لأهل الإسلام، والمنع من(الماء) نبض الحياة الأول المبذول للجميع حتّى أنّهم قد (صرعهم) العطش في صورة تجرّد كل

من يفعلها من صورته الإنسانيّة.

ومن أجل تحقيق أكبر قدر من التأثير والتصحيح لجأ الأنصار إلى (السلم الحجاجي) في نبرة حجاجية تصاعدية، تضع المتلقي في عدّة نقلات فكرية تقود الأولى منها إلى الأخرى حتّى يتصاعد الموقف وتتصاعد معه سبل التأثير والإقناع من طريق تحليل المواقف وكشفها وتمزيق غشاء التضليل عنها كقول برير بن خضير: «يا أهل الكوفة أنسيتم كتبكم إليه وعهودكم الذي أعطيتموها من أنفسكم؟ وأشهدتم الله عليها وكفى بالله شهيدا، يا ويلكم! دعوتم أهل بيت نبيّكم وزعمتم أنّكم تقتلون أنفسكم دونهم، حتّى إذا أتوا عليكم أسلمتُموهم إلى عبيد الله بن زياد وحُلتم بينهم وبين الماء الجاري ! وهو مبذول يشرب منه اليهود والنصارى والمجوس، وترده الكلاب والخنازير، فبئس ما فعلتم بمحمد(صلى الله عليه وآله) في ذريته».

هذا الحجاج يركّز على فكرة (الخذلان) ويترصدها في موقف الجمع الضال في مشاهد عدّة: الأول هو دعوتهم الإمام الحسين (عليه السلام) والتعهّد له بالمناصرة بينما كانت النتيجة التنصل والإنكار بل المشهد الثاني يصور تسليمه وأهل بيته إلى أعدائهم، ثمّ يأتي المشهد الثالث وهو الحيلولة بينهم وبين الماء، ويُزيد في تقريعهم وفي تعميق الصورة المؤثرة، أنّه مبذول للجميع، لا يمكن أن يحرم منه أحد مهما كان دينه وتوجهه وجنسه، فهو يمثل الحقّ في الحياة

هذه المشاهد يقود كلّ واحد منها إلى موقف أشدّ من سابقه حتّى تنتهي في نقطة الذروة، إذن الخذلان ثمّ الاستعداء، ثمّ المنع من الماء(وهو صورة من صور القتل الأول)، وليس مجرد المنع والحيلولة، هذه الأفعال المنكرة تتدرج في قباحتها وسوئها بصياغة تصاعدية تجعلها أكثر عمقًا وتأشيرًا مما لو صيغت بطريقة أخرى.

الهوامش:

١- ينظر: الأنظمة السيميائية: ١٤.

٢- ينظر: لسان العرب: مادة (خطب).

٣- المصدر نفسه: المادة نفسها.

٤- معجم مقاييس اللغة: مادة(خطب).

٥- لسان العرب: مادة (خطب).

٦- المصدر نفسه: المادة نفسها

٧- المصدر نفسه: المادة نفسها

٨- معجم مقاييس اللغة: مادة(خطب).

٩- لسان العرب: مادة (خطب).

١٠- استراتيجيات الخطاب الإعلاني التلفزيوني لدى شركات الهاتف النقال في الجزائر: ٤٣.

١١- بلاغة الحجّة في خطاب الخلفاء الراشدين: ٤٧-٤٨.

١٢- دليل الناقد الأدبي: ١٥٦.

١٣- ينظر: بلاغة الحجّة في خطاب الخلفاء الراشدين: ٣٨.

١٤- لسانيات النص: ٤٠.

١٥- تجنبا لتكرار التنصيص سوف نوثق كلّ خطبة حينما ترد أوّل مرة فقط.

وردت خطبة الحر ابن يزيد الرياحي في: جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٨-٤٩.

١٦- وردت خطبة برير بن خضير في: الفتوح: ٥/ ١٨٢.

١٧- ينظر: خصائص الخطاب الشفهي للقرآن الكريم: ١٢٠.

١٨- وردت خطبة زهير بن القين في: جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٦-٤٨.

١٩- مثّل هذا النداء مفتتح هذه الخطبة، ينظر: الفتوح: ٥/ ١٨٢.

٢٠- ومثّل هذا النداء مفتتح خطبة الحرّ الرياحي أيضا، ينظر: جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٨.

٢١- ورد هذا النداء مرتين في هذه الخطبة. ينظر: جمهرة خطب العرب: ٢/ ٤٦-٤٨.

٢٢- الرمز والرمزية: ٣٤.

٢٣- الرمز في الخطاب الأدبي: ٧٥.

٢٤- المصدر نفسه: ٥١.

٢٥- جماليات المقالة عند د. علي جواد الطاهر: ٨٥.

٢٦- المصدر نفسه: ٧٨.

٢٧- التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية: ١٠٩.

٢٨- الشورى: الآية ٢٣.

٢٩- التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية: ٧٨.

٣٠- غافر: الآيات: ٣٠-٣٣، ووردت خطة حنظلة في الكامل في التاريخ: ٣/ ٤٢٧.

٣١- التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية: ٤١.

٣٢- النص الحجاجي العربي – دراسة في وسائل الإقناع: ٤٤.

٣٣- ينظر: جماليات المقالة عند د. علي جواد الطاهر: ٨٧.

٣٤- وردت خطبة عبد الله بن عفيف الأزديّ في: الكامل في التأريخ: ٣/ ٤٣٦.

المصادر والمراجع:

١- القران الكريم.

٢- استراتجيات الخطاب الإعلاني التلفزيوني لدى شركات الهاتف النقال في الجزائر، خدوجة بن فطوم، رسالة ماجستير، المركز الجامعي أكلي محند أولحاج البويرة،الجزائر، ٢٠١١-٢٠١٢م.

٣- الأنظمة السيمائية، دراسة في السرد العربي القديم، د.هيثم سرحان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، توزيع دار أويَا للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس ٢٠٠٨م.

٤- التصوير الفني في خطب المسيرة الحسينية، هادي سعدون هنون، مكتبة الروضة الحيدرية، الرسائل الجامعية (٣٤) النجف الأشرف ٢٠١١م.

٥- بلاغة الحجّة في خطاب الخلفاء الراشدين، هناء حلاسة، مركز الكتاب الأكاديمي، ط١، عمّان ٢٠١٦ م.

٦- جماليات المقالة عند د.علي جواد الطاهر(وراء الأفق الأدبي) مثالا، د.فاضل عبود التميمي، دار الشؤون الثقافة العامة، ط١، بغداد ٢٠٠٧م.

٧- جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، مصر، ١٩٣٣م.

٨- خصائص الخطاب الشفهي للقرآن الكريم، حسام محمّد أيوب، جرش للبحوث والدراسات، مج ١١، ع١، ٢٠٠٦م.

٩- دليل الناقد الأدبي د.ميجان الرويلي و د.سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، ط٣، الدار البيضاء، ٢٠٠٢م.

١٠- الرمز في الخطاب الأدبي، حسن كريم عاتي، الروسم للصحافة والنشر والتوزيع، ط١، بغداد ٢٠١٥م.

١١- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، د.محمد فتوح أحمد،دار المعارف، مصر

١٩٧٧م.
١٢- الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي، بإعانة وزارة المعارف للحكومة الهندية، ط١، ١٩٧٢م.
١٣- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.
١٤- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٨م.
١٥- لسانيات النصّ، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمّد خطابي، المركز الثقافي العربي، ط ٢، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠٠٦م.
١٦- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٨م.
١٧- النص الحجاجي العربي- دراسة في وسائل الإقناع، محمّد العبد، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع٦٠، مصر، ٢٠٠٢م.